تفسير مقاتل بن سليمان (سورة سبأ مكية)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿ ١ ﴾

{الحمد لله } وذلك أن كفار مكة لما كفروا بالبعث ، حمد الرب نفسه ، قال عز وجل { الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض } من الخلق { وله الحمد في الآخرة } يعني يحمده أولياؤه في الآخرة إذا دخلوا الجنة ، فقالوا : { الحمد لله الذي صدقنا وعده } [الزمر :74] ، و { الحمد لله الذي هدانا لهذا } [الأعراف :43] ، { وهو الحكيم } حكم البعث { الخبير } آية به .

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿ ٢ ﴾

{ يعلم ما يلج في الأرض } من المطر { وما يخرج منها } من النبات { وما ينزل من السماء } من المطر { وما يعرج فيها } يعني وما يصعد في السماء من الملائكة { وهو الرحيم } حين لا يعجل عليهم بالعذاب { الغفور }

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الْأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿ ٣ ﴾

{ وقال الذين كفروا } أبو سفيان لكفار مكة واللات والعزى { لا تأتينا الساعة } أبدا ، فلما حلف أبو سفيان بالأصنام حلف النبي صلى الله عليه وسلم بالله عز وجل ، فقال الله عز وجل : { قل } يا محمد { بلى وربي لتأتينكم } الساعة { عالم الغيب } غيب الساعة { لا يعزب عنه } من { مثقال ذرة } وزن أصغر النمل { في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك } ولا أقل من ذلك المثقال { ولا أكبر } منه ولا أعظم من المثقال { إلا في كتاب مبين } آية إلا هو بين في اللوح المحفوظ .

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿ ٤ ﴾

{ ليجزي } لكي يجزى في الساعة { الذين آمنوا } صدقوا { وعملوا الصالحات } بالقسط بالعدل { أولئك لهم مغفرة } لذنوبهم { ورزق كريم } آية حسنا في الجنة .

وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴿ ٥ ﴾

ثم ذكر كفار مكة ، فقال عز وجل { والذين سعو } عملوا { في آياتنا } يعني القرآن { معاجزين } مثبطين الناس عن الإيمان بالقرآن مثلها في الحج { أولئك لهم عذاب من رجز أليم } آية نظيرها في الجاثية .

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿ ٦ ﴾

{ ويرى } ويعلم { الذين أوتوا العلم } بالله عز وجل ، يعني مؤمني أهل الكتاب وهي قراءة ابن مسعود ، "ويعلم الذين أوتوا الحكمة من قبل" ، { الذي أنزل إليك } يعني النبي صلى الله عليه وسلم { من ربك هو الحق } يعني القرآن { ويهدي إلى صراط } ويدعو إلى دين { العزيز } في ملكه { الحميد } آية في خلقه .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿ ٧ ﴾

{ وقال الذين كفروا } بالبعث أبو سفيان ، قال لكفار مكة :{ هل ندلكم } ألا ندلكم { على رجل } يعني النبي صلى الله عليه وسلم { ينبئكم } يخبركم أنكم { إذا مزقتم كل ممزق } يخبركم أنكم إذا تفرقتم في الأرض وذهبت اللحوم والعظام ، وكنتم ترابا { إنكم لفي خلق جديد } آية يعني البعث بعد الموت .

أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلاَلِ الْبَعِيدِ ﴿ ٨ ﴾

ثم قال أبو سفيان :{ افترى } محمد صلى الله عليه وسلم { على الله كذبا } حين يزعم أنا نبعث بعد الموت { أم به جنة } يقول : أم بمحمد جنون ، فرد الله عز وجل عليهم ، فقال :{ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة } لا يصدقون بالبعث الذي فيه جزاء الأعمال هم أكذب وأشد فرية من محمد صلى الله عليه وسلم حين كذبوا بالبعث ، ثم قال جل وعز : هم { في العذاب } في الآخرة { والضلال البعيد } آية الشقاء الطويل ، نظيرها في آخر اقتربت الساعة .

أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَآءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿ ٩ ﴾

ثم خوفهم ، فقال جل وعز :{ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم } ثم بين ما هو ، فقال جل وعز :{ من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض } فتبتلهم { أو نسقط عليهم كسفا من السماء } يعني جانبا من السماء فنهلكهم بها { إن في ذلك لآية } يعني عبرة { لكل عبد منيب } آية مخلص بالتوحيد .

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿ ١٠ ﴾

{ ولقد آتينا داود } أعطينا داود { منا فضلا } النبوة كقوله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم في سورة النساء :{ وكان فضل الله عليك عظيما } [النساء :113] ، يعني النبوة والكتاب ، فذلك قوله عز وجل :{ ولقد آتينا داود منا فضلا } النبوة والزبور وما سخر له من الجبل والطير والحديد ثم بين ما أعطاه ، فقال عز وجل :{ يا جبال أوبي معه } سبحي معه مع داود ، عليه السلام ، يقول اذكري الرب مع داود ، وهو التسبيح ، ثم قال عز وجل :{ و } سخرنا له { والطير وألنا له الحديد } آية فكان داود ، عليه السلام ، يضفر الحديد ضفر العجين من غير نار ، فيتخذها دروعا طوالا .

أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿ ١١ ﴾

فذلك قوله عز وجل :{ أن اعمل سابغات } الدروع الطوال ، وكانت الدروع قبل داود إنما هي صفائح الحديد مضروبة ، فكان داود ، عليه السلام ، يشد الدروع بمسامير ما يقرعها بحديد ولا يدخلها النار ، فيقرع من الدروع في بعض النهار ، وبعض الليل ، بيده ثمن ألف درهم ، قال لداود :{ وقدر في السرد } يقول : قدر المسامير في الخلق ولا تعظم المسامير فتنقصم ولا تضفر المسامير فتسلس ، ثم قال الله عز وجل لآل داود :{ وأعملوا صالحا } يعني قولوا الحمد لله { إني بما تعملون بصير }

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿ ١٢ ﴾

ثم ذكر ابنه سليمان ، عليهما السلام ، وما أعطاه الله عز وجل من الخير والكرامة ، فقال عز وجل :{ و } سخرنا { ولسليمان الريح غدوها شهر } يعني مسيرة شهر فتحملهم الريح من بيت المقدس إلى أصطخر وتروح بهما ذا بلستان { ورواحها شهر } يعني مسيرة فتحملهم إلى بيت المقدس لا تحول طيرا من فوقهم ولا ورقة من تحتهم ولا تثير ترابا ، ثم قال جل وعز :{ أرسلنا له عين القطر } يعني أخرجنا لسليمان عين الصفر ثلاثة أيام تجي مجرى الماء بأرض اليمن { ومن الجن من يعمل } وسخرنا لسليمان من الجن من يعمل { بين يديه } بين يدي سليمان { بإذن ربه } يعني رب سليمان عز وجل { ومن يزغ منهم } ومن يعدل منهم { عن أمرنا } عن أمر سليمان ، عليه السلام ، { نذقه من عذاب السعير } آية الوقود في الدنيا كان ملك بيده سوط من نار من يزغ عن أمر سليمان ضربه بسوط من نار فذلك عذاب السعير .

يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اِعْمَلُوٓا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿ ١٣ ﴾

{ يعملون له ما يشاء } يعني الجن لسليمان { من محاريب } المساجد { وتماثيل } من نحاس ورخام من الأرض المقدسة وأصطخر من غير أن يعبدها أحد ، ثم قال جل وعز :{ وجفان كالجواب } وقصاع في العظم كحياض الإبل بأرض اليمن من العظم يجلس على كل قصعة واحد ألف رجل يأكلون منها بين يدي سليمان { وقدور } عظام لها قوائم لا تتحرك { راسيات } ثابتات نتخذ من الجبال والقدور وعين الصفر بأرض اليمن ، وكان ملك سليمان ما بين مصر وكابل ، ثم قال جل وعز :{ اعملوا آل داود شكرا } بما أعطيتهم من الخير ، يقول الرب عز وجل :{ وقليل من عبادي الشكور } .

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَآبَّةُ ٱلأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿ ١٤ ﴾

{ فلما قضينا عليه } على سليمان { الموت } وذلك أن سليمان ، عليه السلام ، كان دخل في السن وهو في بيت المقدس { ما دلهم } ما دل الجن { على موته } على موت سليمان { إلا دابة الأرض } يعني الأرضة ، وذلك أن الجن كانوا يخبرون الإنس أنهم يعملون الغيب الذي يكون في غد فابتلوا بموت سليمان ببت المقدس ، وكان داود أسس بيت المقدس موضع فسطاط موسى ، عليه السلام ، فمات قبل أن يبنى فبناه سليمان بالصخر والقار ، فلما حضره الموت قال لأهله : لا تخبروا الجن بموتى حتى يفرغوا من بناء بيت المقدس ، وكان قد بقي منه عمل سنة ، فلما حضره الموت ، وهو متكئ على عصاه ، وقد أوصى أن يكتم موته ، وقال : لا تبكوا على سنة لئلا يتفرق الجن عن بناء بيت المقدس ففعلوا ، فلما بنوا سنة وفرغوا من بنائه سلط الله عز وجل عليه الأرضة عند رأس الحول على أسفل عصاه ، فأكلته فذلك قوله :{ تأكل منسأته } أسفل العصا فخر عند ذلك سليمان ميتا ، فرأته الجن ، فتفرقت ، فذلك قوله عز وجل :{ فلما خر } سليمان { تبينت الجن } يعني تبينت الإنس { أن لو كانوا } الجن { يعلمون الغيب } يعني غيب موت سليمان { ما لبثوا } حولا { في العذاب المهين } آية والشقاء والنصب في بيت المقدس ، وإنما سموا الجن لأنهم استخفوا من الإنس ، فلم يروهم .

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿ ١٥ ﴾

{ لقد كان لسبإ } وهو زجل بن يشخب بن يعرب بن قحطان { في مسكنهم آية } ، ثم قال : { جنتان } أحدهم { عن يمين } الوادي { و } الأخرى عن { وشمال } الوادي ، واسم الوادي العرم ، يقول الله عز وجل لأهل تلك الجنتين :{ كلوا من رزق ربكم } الذي في الجنتين { واشكروا له } لله فيما رزقكم ، ثم قال : أرض سبأ { بلدة طيبة } بأنها خرجت ثمارها { و } ربكم إن شكرتم فيما رزقكم { ورب غفور } آية للذنوب كانت المرأة تحمل مكتلا على رأسها ، فتدخل البستان فيمتلئ مكتلها من ألوان الفاكهة والثمار من غير أن تمس شيئا بيدها ، وكان أهل سبأ إذا أمطروا يأتيهم السيل من مسيرة أيام كثيرة إلى العرم ، فعمدوا فسدوا ما بين الجبلين بالصخر والقار ، فاستد زمانا ، وارتفع الماء على حافتي الوادي ، فصار فيهما ألوان الفاكهة والأعناب

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿ ١٦ ﴾

فعصوا ربهم ، فلم يشكروه ، فذلك قوله عز وجل :{ فأعرضوا } عن الحق { فأرسلنا عليهم سيل العرم } والسيل هو الماء ، والعرم اسم الوادي سلط الله عز وجل الفارة على البناء الذي بنو ، وتسمى الخلد ، فنقبت الردم ما بين الجبلين ، فخرج الماء ويبست جناتهم ، وأبدلهم الله عز وجل مكان الفاكهة والأعناب { وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط } وهو الأراك { وأثل } يعني شجرة تسمى الطرفاء يتخذون منها الأقداح النضار { وشيء من سدر قليل } آية وثمره السدر النبق .

ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴿ ١٧ ﴾

{ ذلك } الهلاك { جزيناهم بما كفروا } كافأناهم بكفرهم { وهل نجزي إلا الكفور } آية وهل يكافأ بعمله السيئ إلا الكفور لله عز وجل في نعمه .

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿ ١٨ ﴾

ثم :{ وجعلنا بينهم } بين أهل سبأ { وبين القرى } قرى الأرض المقدسة الأردن وفلسطين { التي بركنا فيها } بالشجر والماء { قرى ظاهرة } متواصلة وكان متجرهم من أرض اليمن إلى أرض الشام على كل ميل قرية وسوق ، لا يحلون عنده حتى يرجعوا إلى اليمين من الشام ، فذلك قوله عز وجل :{ وقدرنا فيها السير } للمبيت والمقيل من قرية إلى قرية { سيروا فيها ليالي وأياما آمنين } آية من الجوع والعطش والسباع ،

فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوَا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿ ١٩ ﴾

فلم يشكروا ربهم وسالوا ربهم أن تكون القرى والمنازل بعضها أبعد من بعض . { فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث } للناس { ومزقناهم كل ممزق } يقول الله عز وجل وفرقناهم في كل وجه ، فلما خرجوا من أرض سبأ ، ساروا ، فأما الأزد فنزلوا البحرين وعمان ، وأما خزاعة فنزلوا مكة ، وأما الأنصار وهم الأوس والخزرج ، فنزلوا المدينة ، وأما غسان فنزلوا بالشام ، فهذا تمزقهم ، فذلك قوله عز وجل :" كل ممزق" و "جعلناهم أحاديث" { إن في ذلك لآيات } يعني في هلاك جنتيهم وتفريقهم عبرة { لكل صبار شكور } آية يعني المؤمن من هذه الأمة صبور على البلاء إذا ابتلى أهل سبأ ، ثم قال : شكور لله عز وجل في نعمه .

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٢٠ ﴾

{ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه } وذلك أن إبليس خلق من نار السموم ، وخلق آدم من طين ، ثم قال إبليس : إن النار ستغلب الطين ، فقال :{ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك } الآية ، فمن ثم صدق بقول الله عز وجل :{ فاتبعوه } ثم استثنى عباده المخلصين ، فقال جل وعز :{ إلا فريقا } طائفة { من المؤمنين } آية لم يتبعوه في الشرك ، وهم الذين قال الله :{ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان } [الحجر :42] .

وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿ ٢١ ﴾

ثم قال :{ وما كان له } لإبليس { عليهم من سلطان } من ملك أن يضلهم عن الهدى { إلا لنعلم } لنرى { من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك } ليبين المؤمن من الكافر { وربك على كل شيء } من الإيمان والشك { حفيظ } آية رقيب .